الحلقة (٣)

حديثنا موصول عن ما تكلمنا فيه في الحلقة الماضية عن وجوب الإيمان بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ما يجب من الإيمان العام المجمل وما يجب على التفصيل وعلى من يجب.

ويتفرع من ذلك **مفردة أخرى** وهي كفاية عموم دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة ووجوب طاعة النبي صلى الله عليه وسلم، فهذه المفردة من المنهج نتكلم عنها ولا نسهب فيها، حتى يكون التفصيل على معاني التوحيد إن شاء الله.

فالواجب اتباع المرسلين عليهم الصلاة والسلام واتباع ما أنزله الله عليهم، وقد ختم الله الأنبياء والرسل بمحمد صلى الله عليه وسلم فجعله آخر الأنبياء وجعل كتابه مهيمنا على ما بين يديه من كتب السماء، (مهيمنا) **أي: حاكما على الكتب التي قبله** وهذا ما ورد في تفسير المهيمن لابن عباس رضي الله عنه، وإن كان قد جاء في تفسيرها أن (مهيمنا) **أي مؤتمناً عليه**، لكن القرآن جاء مهيمناً على ماقبله من الكتب فهو حاكم عليها.

وأنزل الله سبحانه وتعالى على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الكتاب والحكمة، وجعل دعوة محمد صلى الله عليه وسلم للثقلين الإنس والجن وهي باقية إلى يوم القيامة، وانقطعت به حجة العباد على الله، وقد بين الله سبحانه بالنبي كل شيء وأكمل له ولأمته صلى الله عليه وسلم الدين خبرا وأمرا، وجعل طاعته طاعة لله، ومعصيته معصية لله، وأقسم الله بنفسه أن الناس لا يؤمنون حتى يحكموا النبي صلى الله عليه وسلم فيما شجر بينهم، وأخبر أن المنافقين يريدون أن يتحاكمون إلى غيره، وأنهم إذا دعوا إلى الله والرسول، المقصود بالدعاء هنا الدعاء إلى كتاب الله وسنة رسوله، يصدون صدودا ويزعمون أنهم إنما أرادوا الإحسان والتوفيق.

وكما يقول كثير من المتفلسفة والمتكلمة من أهل الضلال والبدع وغيرهم، إنما نريد أن نحس الأشياء بحقيقتها أو ندركها ونعرفها ونريد التوفيق بين الدلائل التي يسمونها العقليات، ويقدمون العقل على النقل، وهي في الحقيقة جهليات، بينها وبين الدلائل النقلية، يقولون نريد التوفيق بين الدلائل العقلية والدلائل النقلية المنقولة عن الرسول صلى الله عليه وسلم أو التوفيق بين الشريعة والفلسفة أوكما يقول المتصوفة الشريعة والحقيقة.

وكل هذه المصطلحات يريدون بها إضلال الناس، وكما يقول كثير من المبتدعة من الفلسفة والمتصوفة إنما نريد بالأعمال الإحسان بالجمع بين العلم والإيقان والتوفيق بين الشريعة وبين ما يدعونه من الباطل الذي يدعونه بالحقائق وهذه كلها جهل وضلال. وكذلك كما يقول بعضهم إنما نريد الإحسان بالسياسة الحسنة والتوفيق بينها وبين الشريعة ونحو ذلك، كل هذا لا يغني من الحق شيئا لأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول تركتكم على المحجة البيضاء، وقبل ذلك يقول الله تعالى {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}. ومحمد صلى

الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء (أنا خاتم الأنبياء لا نبي بعدي)، وكتابه خير الكتب حاكم ومهيمن على الكتب التي قبله، ناسخ لما جاء بالأوامر التي تخالفه فيها. فالقرآن حاكم على ما قبله من الكتب والنبي خاتم لمن قبله لا نبي بعده، قضي الأمر.

المفردة التالية: هي كفاية ما جاء به الرسول عما سواه، فكل من طلب أن يحكّم في شيء من أمر الدين غير ما جاء به الرسول ويظن أن ذلك حسن. وأن ذلك جمع بين ما جاء به الرسول وبين ما يخالفه فله نصيب من هذا. بل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم كاف كامل يدخل فيه كل حق وإنما وقع التقصير في كثير من المنتسبين إليه، فلم يعلموا ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم في كثير من الأمور الكلامية و الاعتقادية ولا كثير في أمور الأحوال والعبادات و لا كذلك في الأمارة السياسية أو نسبوا إلى شريعة الرسول في ظنهم وتقليدهم ما ليس منها وأخرجوا عنها كثير مما هو منها. فبسبب جهل هؤلاء وضلالهم وتفريطهم وعدوان أولئك ونفاقهم كثر النفاق ودرس كثير من علم الرسالة، إذن الجهل والتعدي بالابتداع على الدين هو ما جعل أموراً كثيرة تطرأ على العقيدة وينحرف كثير من الناس عن العقيدة الصحيحة.

يقول الشارح : **"بل البحث التام والنظر القويم والاجتهاد الكامل فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ليعلم ويعتقد ويعمل به ظاهرا وباطنا فيكون قد تلي حق تلاوته وأن لا يهمل منه شيء. فإذا كان العبد عاجز عن معرفة بعض ذلك أو العمل به. فلا ينهى عما عجز عنه مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم. بل حسبه أن يسقط عنه اللوم لعجزه. يعني يسقط عنه ما عجز عنه، أما ما يستطيعه فإنه يجب عليه. لكن عليه أن يفرح بقيام غيره به، ويرضى بذلك ويود أن يكون قائما به ولا يؤمن ببعضه ويترك بعضه، بل يؤمن بالكتاب كله وأن يصان عن أن يدخل فيه ما ليس منه، من رواية أو رأي أو يتبع ماليس من عند الله اعتقادا أو عملا كما قال تعالى { وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ }. هذه الطريقة كانت طريقة السابقين الأولين وهي طريقة التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين".**

معنى علم الكلام: يعرّف بأنه العلم الذي يقوم على إثبات العقائد الدينية عن طريق الأدلة العقلية بزعمهم لا عن طريق الأدلة النقلية الشرعية. هكذا زعموا وزعمهم باطل.

المفردة الأخرى في المنهج أن العلم بالكلام هو الجهل بالكلام، والكلام ليس المقصود به الكلام الحديث إنما الكلام الذي ذكرت بيانه قبل قليل فالعلم بالكلام هو الجهل بالكلام والوصول إلى علم الأصول لا يكون بغير إتباع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، هناك آثار عن السلف وردت في ذم علم الكلام، فعن أبي يوسف صاحب أبي حنيفة المحدث الكبير أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري كبير القضاة. صاحب أبي حنيفة أكثر من (١٧ عاما). وتفقه به. وهو من أنبل تلامذة أبي حنيفة وأعلمهم. توفي سنة (١٨٢) للهجرة.

وذُكر أنه قال لبشر المريسي –وبشر المريسي هو أبو عبد الرحمن خطيب متكلم من أهل الكلام وهو معتزلي رأس الطائفة المريسية التي قالت بخلق القرآن الذي أمتحن فيه إمام أهل السنة والجماعة الإمام أحمد رحمه الله- هذا المريسي أخذ الفقه عن أبي يوسف رحمه الله صاحب أبي حنيفة وتوفي سنة ٢١٨ هـ قال عنه الذهبي في ميزان الاعتدال –وهو مبتدع ضال لا ينبغي أن يروى عنه ولا كرامة- لم يدرك الجهم بن صفوان صاحب مقالة التعطيل التي أخذها عن الجعد وإنما تقلد مقالته من غير إدراك له. تقلدها وهي القول بخلق القرآن واحتج لها ودعا لها وسيسها وجعل الخليفة يعتنقها ويمتحن الناس فيها.

يقول أبو يوسف لبشر المريسي :العلم بالكلام هو الجهل، والجهل بالكلام –أي بعلم لكلام- هو العلم، وإذا صار الرجل رأسا في الكلام قيل زنديق أو رمي بالزندقة.

أراد بالجهل به اعتقاد عدم صحته لا أن يعلم ليحذر منه كما يقول الشاعر:

عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه *** ومن لا يعرف الخير من الشر يقع فيه

فإن ذلك علم نافع أو أراد به الإعراض عنه وترك الالتفات باعتباره فإن ذلك يصون علم الرجل وعقله فيكون علما بهذا الاعتبار، وعن أبي يوسف أيضا أنه قال: من طلب العلم بالكلام تزندق، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس، ومن طلب غريب الحديث كذب، أي طلب علم العقيدة بعلم الكلام فإنه قد ضل في هذا العلم وتزندق وخرج من الدين، والزندقه هي الإلحاد بالله سبحانه وتعالى وإن كان علم الكلام بمجمله ليس بزندقة ولكنه يؤدي إليها، ويقول من طلب المال بالكيمياء أفلس ومن طلب غريب الحديث كذب لأن الناس سيكذبونه بسبب مايأتي به من غرائب.

ويروى عن الإمام الشافعي أيضا: "حكمي في أهل الكلام أن يضربون بالجريد والنعال، ويطاف بهم في العشائر والقبائل، ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على علم الكلام".

وقال أيضا رحمه الله:

كل العلوم سوى القرآن مشغلة *** إلا الحديث وإلا الفقه في الدين

العلم ما كان فيه قال حدثنا *** وما سوى ذاك وسواس الشياطين

وذكر الأصحاب في الفتاوى –هذا يقوله ابن أبي العز، بقول الأصحاب أي أصحابه الأحناف- : لو أوصى لعلماء بلده بشيء لا يدخل المتكلمون في معنى كلمة العلماء -أي يخرجون من هذا المصطلح، والعلماء هم أهل الحديث والفقه وغيرهم ممن يخدمون الشريعة لا يدخل فيهم المتكلمون أصحاب علم الكلام- لو أوصى لعلماء بلده -يعني أوصى بشيء سواء كان وقفا ريعه يكون للعلماء فإنه يصرف لأهل العلم إلا المتكلمين فإنهم لا يدخلون في هذا- يقول ولو أوصى إنسان أن يوقف من كتبه ما هو من كتب العلم، فأفتى السلف أن يباع فيها من كتب الكلام، لأن علم الكلام لا يدخل في العلم، وذكر ذلك فيما معناه في الفتاوى الظاهيرية يقول:

فكيف يرام الوصول إلى علم الأصول بغير اتباع ما جاء به الرسول، ولقد أحسن القائل الذي يقول:

أيها المغتدي ليطلب علمـــا *** كـل علم عبد لعلم الرســـول

تطلب الفرع لكي تصحح أصلا *** كيف أغفلت علم أصل الأصول

كيف تطلب فرع لتصحح أصلا ونبينا صلى الله عليه وسلم أوتي مجاميع الكلم وفواتحه وجوامعه وخواتمه فبعث بالعلوم الكلية والجزئية الأولية والأخروية على أتم الوجوه، ولكن كلما ابتدع شخص بدعة اتسعوا في جوابها على هذه البدعة فيكثر الكلام في العلم" العلم لا يكثر وإنما يكثر الكلام فيه"

فلذلك تجد أن الطحاوي ذكر المتن في وريقات صغيرة ثم بعد أربعمائة سنة أتى بعده ابن أبي العز وشرحه بمئات الصفحات العلم لايتغير العلم هو ماجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم، كما قال رحمه الله الشافعي:

العلم ماكان فيه قال حدثنا***وماسوى ذاك وسواس الشياطين

والعلم حديث النبي صلى الله عليه وسلم وقبل ذلك القرآن الكريم فالعلم لا يتسع ولكن يتسع الكلام فيه، الشرح يكثر والتفريعات تكثر لذلك صار كلام المتأخرين كثيرا قليل البركة بخلاف كلام المتقدمين فإنه قليل كثير البركة لا كما يقوله ضلال المتكلمين وجهلتهم "إن طريقة السلف أسلم وإن طريقة الخلف أعلم وأحكم" وهذه مقولة قديمة للمبتدعة وفيها لمز للسلف وتزكية للخلف على خلاف منهج أهل السنة والجماعة، وكما يقوله من لم يقدرهم قدرهم ممن هم ينتسبون للفقه يقول "إنهم لم يتفرغوا يقصد المتقدمين لأستنباطه وضبط قواعده وأحكامه إشتغالا منهم بغيره، والمتأخرون تفرغوا لذلك فهم أفقه".

وهذا الكلام مخالف لما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم (**خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**) ثم يأتي متأخر ويقول هذا الكلام الذي لا يقبله سني عاقل، فكل هؤلاء محجوبون عن معرفة مقادير السلف وعمق علومهم وقلة تكلفهم. وكمال بصائرهم رحمهم الله.

وتالله ما امتاز عنهم المتأخرون إلا بالتكلف. والاشتغال بالأطراف التي كانت همة القوم مراعاة أصولها، المتقدمون اهتموا بالأصول والمتأخرون اهتموا بالفروع التي لا تغني من الأصول شيئا وضبط قواعدها وشد معاقدها وهمم مشمرة إلى المطالب العالية في كل شيء فالمتأخرون في شأن والقوم في شأن وقد جعل الله لكل شيء قدرا.

ويعلق الشارح على المتن يذكر ابن أبي العز أن هذه العقيدة شرحها غير واحد من العلماء يقول: "**لكني رأيت بعض الشارحين قد أصغى إلى أهل الكلام المذموم واستمد منهم وتكلم بعبارتهم**" بعض شراح الطحاوية وهم كثر وكتبهم مخطوطة إلى الآن وبعضها طبع، خالفوا الطحاوي رحمه الله فيما يعتقد وهم شرحوا وأضلوا الناس ببعض شرحهم.

المفردة الثالثة: هي مفردة التوحيد ومعاني التوحيد.

معنى كلمة التوحيد: توحيد مصدر وحّد يوحد توحيدا أي جعلك الشيء واحدا. وقد جاء في السنة عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: (**إنك تأتي قوما أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يوحدوا الله**). وجاء في قول الصحابي رضي الله عنه: (فأهلّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتوحيد في قوله لبيك اللّٰهُمَّ لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك) الشاهد من هذا قوله صلى الله عليه وسلم (فأهلّ صلى الله عليه وسلم بالتوحيد).

معنى التوحيد في اللغة: جعلك الشيء واحدا، أي جعلك الله واحدا في الألوهية والربوبية والأسماء والصفات. والنصوص دلت على أن الله واحد في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

فالتوحيد إذن في الكتاب والسنة راجع إلى توحيد الألوهية والربوبية والأسماء والصفات على التقسيم المشهور الذي تمت دراسته في المدارس.

بعض أهل العلم قسم التوحيد إلى تقسيم آخر إلى قسمين، وذكر ذلك شارح الطحاوية أنه قسمه إلى قسمين،

الأول: توحيد في المعرفة والإثبات، والثاني: توحيد في القصد والطلب.